الفصل الثامن

شعر العصر العباسى

— ٢ —

الشعر القضائى أو شعر الخصومات

لعل من الغريب أن تجد شعراً مدرجاً تحت عنوان كهذا ؛ وقد تحسب أن المقصود به قضايا تصاغ شعراً ، وترفع إلى القضاة منظومة ؛ أو أن المراد به دفاع موزون عن حقوق ؛ أو محاورات مقفاة بين خصوم ؛ أو أن أصحاب هذه القضايا ، أو القائمين بهذا الدفاع ، يعتمدون على المنطق ، أو يحتكمون إلى مواد القانون ، ونصوص الفقه وأصول التشريع .

ولكنك تقرؤه فتراه بعيداً عن هذا كله ، فهو شعر كغيره من الشعر ، فيه مدح وهجاء ، وفيه خيال وحقائق ، وفيه عواطف وانفعالات ، وفيه حق وفيه تحامل . ولكن المناسبات التى قيل فيها ، والحوادث التى أوحت به ، كانت فى مجالس القضاة ، أو بسبب فصل القضاء ، أو لدافع يمت إلى شىء من ذلك .

ومن الطبيعى أن يكثر الحديث فى مثل هذا الشعر عن العدل والظلم ، والقضاء والحكم ، والخصوم والشهود ، والبينة واليمين ، والحق والباطل وشبه ذلك .

وإذا تعرض هذا الشعر للقضاة هجاهم بما يشينهم كأكل أموال اليتامى ، أو أخذ الرشا ، أو الميل فى القضاء ؛ أو مدحهم بما يشرفهم ، كالمؤاساة بين الناس فى وجههم ومجلسهم وعدلهم ، والبعد عن الشبهات فى تصرفهم ، والتخلق

بكريم الأخلاق وجميل الصفات .

وترى فى أثناء ذلك الشعر صوراً متعددة من حياة المجتمع ومشكلاته ، ومن المنازعات العامة والخاصة التى تعرض على مسمع القاضى وتقدم إلى حضرته . وأكثر ما بقى من شعر هذه المنازعات متصل بالأمور العامة كما سترى .

وكان لهذا النوع من الشعر مقدمات فى عصر بنى أمية ، رأينا منها هجاء عمران بن عبد الرحمن الحسنى لخلفه فى القضاء عبد الواحد بن عبد الرحمن . . . بن معاوية بن حديج . إذ رماه بالتخنث والأنوثة ؛ وهجاءً لمن ولاه ، وهو عبد الله بن عبد الملك ، ودعا على الوالى وقاضيه[١] .

ورأينا منها شعر اليتيم الذى لم ينصفه القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى ، فقال فيه أبياتاً ، هى أقرب إلى الشكوى منها إلى الهجاء . وبلغ أمره هشام بن عبد الملك ، فعزل يحيى عن القضاء[٢] .

وأول شعر نعرفه من هذا النوع فى عهد العباسيين ، قاله عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى :

فقد كان أبو خُزَيمة الرعَيْنىّ والياً على القضاء من قبل يزيدَ بنِ حاتم سنة ١٤٤ هـ . فرفع إليه أن عبد الأعلى بن سعيد تزوج امرأة من بنى عبد كُلال ، فقام بعضُ أوليائها وأنكروه ، وترافعوا إلى أبى خزيمة ، فقال : ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله ؛ إذا زوجها ولى فالنكاح ماض . فارتفعوا إلى يزيد ابن حاتم ، وهو الأمير يومئذ . فقال يزيد : ليس عبد الأعلى من أكفائها ، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها ، فامتنع ؛ ففرق بينهما يزيد . فقال عبد الأعلى يعرض بالأمير ، ويتهمه بالكفر ، ويطعن فى قضائه[٣] :

---

(١) ص ١٥٦ من هذا الكتاب .
(٢) ص ١٥٨ من هذا الكتاب .
(٣) الولاة والقضاة ص ٣٦٧ .

« و » أعلنت الفواحش فى البوادى وصار الناس أعوانَ المريبِ
إذا ما عِبْتُهم عابوا مقالى لما فى القوم من تلك العيوبِ
وودوا لو كفرنا فاستوينا وصار الناس كالشىء المشوب
وكنا نستَطِبُّ إذا مرضنا فصار هلاكنا بيد الطبيب

وقد يعيب البيت الأول من هذه الأبيات أن نقص حرفا ففقد جمال الموسيقى وحسن النغم ؛ وهذا شعر عام لم تذكر فيه القضية ، ولا إشارة إليها لولا رواية الكندى للقصة ؛ ولكن الأبيات برغم ذلك تعد من الشعر الجيد ، وليست دون غيرها من الشعر القوى فى الهجاء .

وعندنا قصيدة أخرى كانت الخصومة فيها شخصية بين القاضى والشاعر .

أما القاضى فرجل عظيم يسمى المفضَّل بن فَضَاله ، والى القضاء من سنة ١٦٨ — ١٦٩ هـ . وأما الشاعر فهو إسحاق بن معاذ بن مجاهد بن خير . وكان بينهما مودة حتى مدح الشاعرُ القاضىَ فقال[1] :

لَفَضْلُك أضحى ، يا مُفَضَّلُ ، ظاهراً لمن كان يُعْنَى بالأمور ويعقلُ
لقد سُسْتَ فضل الحكم فى الدهر حِقبةً فلا أنت ذو خُرْق ولا أنت تجْهَلُ
ولا أنت ممن يَطَّبِيه[2] مطامعٌ ويُعرض عن قصدِ السبيل ويَعدِلُ
فإن قيل أى الناس أهجر للهوى وأقضى بفصل الحكم ؟ قيل المفضلُ
فأنّى نخاف الجور منك ، وإنما دليلك فى الحكم الكتاب المنزلُ

لكنه تغير عليه وهجاه بعد الرضا عنه ، وذهب إليه يوماً فى خصومة ، وأدخل يده فى كمه ليخرج قصته ، فأخرج الهجو فدفعه إليه وهو :

(١) الولاة والقضاة ص ٣٧٩ (٢) يفتنه ويستميله

خف الله واسمع من مقالى ، مفضلُ فإنك عن فصل القضاء ستُسأل
وقد قال أقوام ، عجبت لقولهم أقاضٍ له شعر طويل مُرَجَّل

فرمى المفضل الرقعة وقال . قم لاحياك الله !

وروى الكندى الأبيات الآتية لإسحق بن معاذ فى هجاء القاضى المفضل . ويفهم من رواية الكندى أنها من قصيدة أخرى ، ولكن النظرة السريعة تقضى بأن القصيدة واحدة تغير فيها بعض الألفاظ ، وزيدت أبيات . قال إسحق :

خف الله وارفق واتئد يا مفضل فإنك عن فصل القضاء ستُسأل
وإنك موقـــوف به ومحاسب فدونك، فانظر، كيف فى الحكم تفعل
أفى العدل أن أُقصى وأخرج متعباً وتدنى بفضل منك خصمى، ويدخل
ويُفتح — إن يدنو — له الباب جهرةً ويغلق دونى ، إن دنوت ، ويُقفَل
ويُقبل منه فى مغيبى شهوده ويَنْتِى ليست ، إذا غاب ، تقبل
فهأنذا أصبحت خصمك فى الذى قضيت به ، والحق ما ليس يجهل
فأصغ إلى السمع منك ، وأنبِنى بأى وجوه الفقه أصبحت تعمل ؟

وهذا شعر فى الهجاء كأنه عتاب عنيف قوى ، تخير التهم التى توجه إلى قاض فتقضى عليه ، كالمحاباة وعدم التسوية بين الخصوم فى المعاملة ، ومجاوزة ما يقضى به الفقه والعدل .

وولى المفضل القضاء مرة ثانية من سنة ١٧٤ — ١٧٧ ورسم أقواماً للشهادة فلم يرض عنه إسحق . ودعا عليه وذمه ؛ قال[1] :

سأدعو إلهى حتى الصباح لكيما يعيدَك كلباً هزيلا
سَنَنْتَ لنا الجور فى حكمنا وصيرَّتَ قوماً لصوصاً عدُولا

(١) الولاة والقضاة ص ٣٨٦ .

وهناك قضية أخرى كان المفضل فيها حكما عدلا أو قاضياً رحيما ؛ وهى قضية أبى الكَرَوَّس تمام بن الكَرَوَّس الكلبى ، الذى تزوج امرأة من المعافر يقال لها أم شاكر ؛ فنافرته يوماً فطلقها ! وادعت عليه مهراً . فخاصمته إلى المفضل فقال أبو الكروس :

ألا طرقتنا سُحْرَةً أمُّ شاكر ... بكاراً ، وهل يؤذيكَ إلا البَاكِرُ
تخاصمنا ذَحْلاً ؛ لِأن بان وصلها ... وذَلك أمرٌ ، أين منه المقادرُ
وقد أخذت مهراً ، لما كان عندها ... وهذى شهودى حِمْيَرٌ والمعَافِرُ

فقال له المفضل : يا أبا الكروس . إن شهد لك بالبراءة حكمنا لك ، وإن شهد عليك فعلينا الوفاء عنك .

وترى فى هذا الشعر تقريرا للخصومة وعرضاً موجزا للقضية ، ودفعاً للاتهام ، ولكنه لا يعرض للقاضى ، وكان موقف المفضل من أبى الكروس فى حالتى البراءة والإدانة موقفا كريما .

قضايا القاضى العمرى :

وإذا كانت هذه القضايا التى سجلها الشعر عن المفضل قضايا فردية ، فهناك قضايا أخرى سجلها الشعر عن قاض آخر ولى قضاء مصر فى أواخر عهد الرشيد ، من سنة ١٨٥ — ١٩٤ وهو القاضى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ، الذى كان معروفاً بمحبته لعمارة الأحباس « الأوقاف » ، وكان يقف عليها بنفسه ، ويجلس مع البنائين أكثر نهاره .

وكان له كُتَّابٌ ، ومن أجلّهم سعيد بن كثير بن عفير ، ويحيى بن عبد الله ابن بُكَير ، واتخذ من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة ، كانوا يشهدون ، ورئيسهم المطرف . ولكن شاعراً من عرب مصر ، من خولان ،

كان موكلا به ، يتتبع زلاته ، ويهجوه بعيوبه ؛ وكان يطعن فى أصحابه . فيتهمهم بالغنى بعد الفقر ، وبأكل أموال اليتامى وقبول الرشوة : ذلك الشاعر هو يحيى الخولانى ، الذى يقول[1] :

كم فقير كان قد مَوَّلَهُ ... بالوارث التى كان مَنَحْ
زكريا وكَبِيشٌ منهمُ ... والمدينِيُّونَ أصحاب البَلَحْ
فأفادوا الدور فضلا ، بعد ما ... كَلِبَ الفقرُ عليهم وألحْ
كم يتيم قد حَوَوْا أمواله ... وشهيدٍ عادل كان جُرِح

وقال قصيدة أخرى يهجو فيها العمرى وأصحابه ومنها[2] :

تُصَيَّر أموالُ اليتامى جوائزا ... لأصحابه حتى استقلوا وأثروا
كبيش وطَلْق والقريرى منهمُ ... وخالدُ والجعدىُّ ذو الفِقْهِ أشْهَبُ
وما ابن بُكَيْرٍ دونهم وسُرَاقَةٌ ... وسابقُ لا تنساه ذاك المعذب
وفى حَكَمٍ والمُطَرِّفِىِّ عجيبة ... وما إن أبو يعقوبَ عنها مُغَيَّبُ
وفى زكريا آية ، فاعجبوا لها ... فقد صار بعد الذل ، للجور يُرْهَبُ
وبعد قِرَانِ العُرْىِ أصبح فاكتسى ... وبعد الحفا والمشى قد صار يَرْكَب
وغيرُ الأُلَى عدَّدْتُ ممن نسيته ... رجالٌ كثير منهمُ يتعجب

وضعف بعض الأبيات والتراكيب ، كالبيت الأخير ، لا يهمنا بقدر ما يهمنا تصويرها لحال ذلك القاضى ورجاله الذين عنى الشاعر بسرد أسمائهم ، مثل زكريا ابن يحيى ، وكبيش بن سلمة ، وسابق بن عيسى ، وأشهب بن عبد العزيز ، ويحيى ابن بكير . وكان لبعض هؤلاء عمل مع القاضى ، فاتهمهم الناس بالرشوة ، كما

(١) ، (٢) الولاة والقضاة ص ٣٩٦ .

لاتهمهم يحيى الخولانى فى هذه الأبيات السابقة .

قضية الحرس[١] :

وهى قضية مشهورة شغلت الناس زمناً ، وشغلت الشعر معهم أيضاً ، وأصل هذه القضية أن بعض العرب بمصر ؛ منهم أبو رَحْـَب الخولانى ، العلاء بن عاصم وهاشم بن حديج ، وأبو الدهماج رياح بن ذؤابة الـكندى ، « كانوا يتحرشون أهل الحرس ويؤذونهم » ، وهم من القبط الذين أسلموا ، كما يفهم من بقية القصة ، وكان أولئك العرب يأبون عليهم أن ينسبوا إليهم ، وأن يكون لهم مثل مزاياهم . فشى أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمرى ؛ وكان منهم ؛ فقالوا له : حتى متى نؤذى ويطعن فى أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونه إلى العمرى ، ليسجل لهم سجلا بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، ووكل لهم فى الأمر سابق بن عيسى ؛ وكبيش بن سلمة ولوط بن عمر . فلما صار المال إلى العمرى لم يجسر على أن يسجل لهم ، وقال : ارفعوا إلى الرشيد فى ذلك . فخرج عبد الرحمن ابن زياد الحرسى وأبو كنانة إلى العراق ، وأنفقا مالا عظيما هناك ، وادعيا أن المفضل ابن فضالة قد كان حكم لهم بإثبات أنسابهم ، وأنهم بنو حَـوْتَـكَةَ بن أسلم بن الحاف بن قُضَاعَة .

أما نسبة الحـكم بعربيتهم إلى المفضل بن فضالة أولا فـكانت تزويرا ، كما يفهم من الـكندى[٢] ، وأن الذى زورها وأقر بالتزوير رجل يسمى عبدَ الـكريم القراطيسى ، وكان ماهراً فى تقليد الخط « وكان يضع على الخطوط نظـيرها » . وقد أخذ فى وضعها ألف دينار ؛ وأخذ المتولى لديوان المفضل ألف دينـار حتى أثبتهم فى الديوان .

---

(١) الولاة والقضاة ص ٣٩٧ وما بعدها . (٢) الولاة والقضاة ص ٣٩٨ .

ورجع عبد الرحمن بن زياد بكتاب من محمد الأمين إلى العمرى « بعد موت الرشيد » بالتسجيل لهم ، ودعاهم إلى إقامة البينة ، فقدموا جماعة من بادية الشام ، ومن أهل الحوف ، والشرقية ، فشهدوا أنهم عرب ، فسجل لهم العمرى نسبهم ، ولم يَرُدَّ من الشهود غير حُوَىٍّ بن حوي بن معاذ العذرى ، لمنازعة كانت بينه وبين أشهب بن عبد العزيز ؛ فقال يحيى الحولانى يذكر هذا الانتساب .

ومن أعجب الأشياء أن عصابةً ... من القِبْطِ فينا أصبحوا قد تَعرَّبوا
وقالوا أبونا حَوْتَكٌ ، وأبوهُمُ ... من القبط عِلْجٌ حبله متذَبْذِبُ[1]
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادَّعَوْا ... بأنهمُ منهم ، سِفَاهاً ، وأجلبوا
ألا لعنَ الرحمنُ من كان راضياً ... «بزَعمهم[2]» مادامت الشمس تغرب

أما حُوَىٌّ بن حوى فلم يعفه من الهجاء أن رُدَّت شهادته ، إذ لم تكن له حيلة فى ردها ، وكان يرغب أن تقبل ، وكان راضياً بما كرهه يحيى الحولانى ، فقال فيه يحيى :

يا ليت أمَّ حُوَىٍّ لم تَلِدْ ذكرا ... أوليت أن حُوَيًّا كان ذا خَرَسِ
كسا قضاعةَ عاراً فى شهادته ... لله دَرُّ حوى شاهِدِ الخرسِ !
شهادةٌ رجعت ، لو أنها قُبِلت ... لألحق الزورُ منها العَيْرَ بالفرسِ

وود يحيى ، فى هذه الأبيات ، لو كانت أم حوى ولدته أنثى ، أو أنه خرس عن أداء الشهادة التى كست قضاعة عاراً ، ولو قبلت شهادته بالزور لألحقت الأدنى بالأعلى ، والوضيع بالشريف ، أو ألحقت الحمير بالخيل . ولكن شهادة الشهود قبلت ، وحكم القاضى للخرس بنسبتهم إلى حوتكة ، وكان

---

(١) العلج = الكافر من العجم .

(٢) فى الأصل « بهم رغماً » والبيت مكسور فجعلتها « بزعمهم » ليستقيم المعنى والوزن .

أهل الحرس يطيفون بالعمرى مع زكرياء بن يحيى كاتبه ، وصاروا أقرب إليه .

وعرف عن العمرى أنه يحب الغناء ، ويستمع إليه ، ويعرف فنونه ، ويرد ما يسمعه إلى كبار المغنين بالمدينة فيقول : هذا غنّى به ابن سُرَيج ، وهذا به الدّلَال ، وهذا من جيد غناء الغريض[1] ؛ ولم تكن بمصر مُسْمِعَةٌ إلا ركب إليها يسمع غناءها ، وربما قوّم ما انكسر من غنائها ، ويرى ذلك من الدين . فقال فيه يحيى الخولانى :

سَرَّ بنا راكب على فرس ... يا من رأى هِرْبِذاً على فرسِ[2]

يقدمهُ خالد ويتبعه ... لوط ، قِرانَ الكلبين فى مَرَسِ

فقلت من ذا اللعين ؟ قيل أبو الـ ... ـمدى ، غدا مسرعا إلى عُرُسِ

كيما يرى قينةً ذكِرَتْ ... تشدو بصوت يُخَالُ كالجرَسِ

أصبَحَ فى المخزيات منغَمِساً ... وليس فى غيرها بمنغمسِ

وكان العمرى فى نظره لاهياً لاعباً صاحب خمر وطرب ، ضعيف العصبية للعرب ، حتى ألحق بهم من لا يساويهم . واستبكى الخولانى سامعه لذلك ، واتهم القاضى بالجور فى أحكامه ، والسهر فى أماكن الريبة ، وشرب الخمر وسماع الغناء ، وتلك كلها مطاعن تسقط من عدالة القاضى ، وتثلم شرفه . فأتحفه بقصيدة أخرى فى هجائه . قال :

ألا قُمْ فاندبِ العَرَبا ... وَبَكِّ الدينَ والحسَبَا

ولا تنفكُّ تنعَى العَدْ ... لَ لمَّا بانَ فاغتَربا

لقد أحدث قاضِى السـ ... ـوء فى فُسْطَاطِنَا عَجَبا

---

(١) ابن سريج والدلال والغريض من مشاهير المغنين بالحجاز في عهد بنى أميه .

(٢) الهربذ : خادم النار عند المجوس ، وخادم بيت النار عند الهنود .

يظل نهاره يقضي بغير العدل منتصبا
ويسهر ليله لسماع القينات والطربا
ويشربها معتقة عقاراً تشبه الذهبا
ويعجبه سماع العود والمزمار ، يا عجبا !
فيا للناس من قاض يحب اللهو واللعبا !

وأبى المعلى الطائى إلا أن يشارك فى الحملة على القاضى العمرى ، وأن يحرجه وأن يجعل مصيره إلى النار ، وذلك كله فى شعر سهل يشبه الحديث فى تدفقه وسهولته ، ولكنه قوى بما فيه من التهكم القاسى ، والإحراج المفحم ، إذ يقول للقاضى :

كم ، كم تطول فى قراتك والجوز يضحك من صلاتك(١)
تقضى نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عربا فزوجهم بناتك
ولتكشفن بما أتيـ ت صدور قوم من مساتك(٢)
وكأننى بمنية تسعى إليـ ك بكف فاتك
لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقة ن من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أكـ ثم ما وصلت إلى صفاتك

وقد ناله من الهجاء فى هذه القضية ما كشف عن سيئاته ، فشبهه الشعراء

(١) قراتك : قراءتك .
(٢) مساتك : مساءتك .

بأبى الندى الذى كان قاطع طريق فى أيامه ، وأعلنوا ما عرفوه عنه من لهو وحب للغناء والشراب . وشكاه أهل مصر إلى الرشيد كى يعزله فأبى وقال : ليس عندى من ولد عمر بن الخطاب غيره . ولولا ذلك لعزله .

قضية السباق : أو « الزعفران وجناح »[1]

وتلك قضية أخرى كان العمرى قاضياً فيها ، ولم يوفق فى حكمه ، وأثار عليه ثائرة الشاعر الخولانى . أما أصل هذه القضية فهو سباق بين فرسين ، أحدهما لمراد ويسمى الزعفران ، والثانى ليَحْصُب ويسمى الجناح . وقد اتفقت مراد ويحصب على أن يتسابق الفرسان ، ومن سبق فرسه أخذ الاثنين . وجعلا للسباق غاية فخرجوا ، وخرج عامة مصر معهم ، فسبق فرس مراد ، حتى كاد يدخل الغاية ، فخرجت يحصُب فضربت وجه الزعفران حتى تحير ، وسَدِمَ الجناحُ ، فرسُ يحصب ، فدخل الغاية . فاقتتلوا ، وانضم مع كل فريق منهم طائفة من الناس ، وركب الأمير ليث بن الفضل يحجز بينهم ، ورد الأمر إلى العمرى لينظر فيه ، فأتته يحصب بأموال عظيمة ، فحكم لهم بالفرس ، ودفع إليهم الزعفران ، وقضى لهم به . ولم يفت يحيى الخولانى أن يسجل ذلك فى شعره فقال :

فكم يد لبنى زَوْف وإخوتهم ... فى آل فِهْرٍ تغُصُّ الشيخ بالريق

إنّ حاكم عُمَرِىٍّ جار فى فرس ... فسوف يُرْجعه عدلُ ابن صديق

والبيت الأخير يرجح أن هذه الأبيات قيلت بعد عزل العمرى ، أو عند إشاعة عزله . وأن القصة نفسها كانت فى آخر أيامه ، وما أشبهها بقصة داحس والغبراء وكأنها صورة منها ؛ لولا انتهاء الخصومة هنا برد الفرس إلى أصحابه لما تولى القاضى البكرى .

---

(١) الكندى ص ٤٠٢ .

وكان ليحيي الحولانى خصم فى هذه المرة يدفع عن القاضى العمرى ، وهو شاعر يسمى عبد الله التجيبي ، من نسل معاوية بن حديج . قال ليحيي يدافع عن يحصب ، ويتوعد مراد :

طلبت فلم تألُ حسنَ الطلبْ ... ورُمْتَ عظيما ولما تُصبْ
وعولت مَوْتاً على رميهم ... بقوس الضلال ونَبْل الكذب
فإن كان فى فَرَس عَتْبكم ... فعندى لكم فرس من قصب
وإلا فمُهْرٌ كريمُ النجارِ ... قليلُ العظام كثير العَصَبْ

فرد عليه يحيي بشعر فيه معنى الدفاع القضائى أو المحاورة بين الشاعرين :

قال يحيي لخصمه ، يدافع عن مراد :

ألا أيها الشاعرُ المنتدَبْ ... يحامى عن العُمَرىِّ العطبْ
ورامى مرادٍ وخَوْلانها ... بنبل من الجهل غيرِ الصُّيُب
«فما» أنقص العمَرِى بامرئٍ ... من الناس إلا كريمَ الحسب[1]
مَلا الأرض جوراً بأحكامه ... وأظهر فيها جميع الرِّيَب

وترى فى هذه القصيدة والتى قبلها روح العصبية الجاهلية ، والدفاع عن القبيلة .

وأشار الفضل بن الربيع وزير الأمين بعزله سنة ١٩٤ هـ فعزله الأمين ، بعد أن ولى هذا المنصب تسع سنين . وقال رجل من أهل مصر :

بحمد الله ورأى الفضلِ ... نُحِّىَ عن الحكم عَدُوُّ العدل
هذا سِوارٌ لرسولِ العَزْل

---

(١) رويت كلمة « لعمرك » فى أول البيت وبها ينكسر الوزن . الصيب : جمع صيوب وهو الذى لا يخطىء الهدف .

القاضى البكرى :

وليها بعده رجل من ذرية أبى بكر الصديق يسمى « هاشم بن أبى بكر البكرى » فى جمادى الآخرة سنة ١٩٤ ، وكان من أهل الكوفة يذهب بمذهب أبى حنيفة .

ونقض ما فعله العمرى فى أهل الحرس ، وما قضى به فى قضية الفرس ، وحبسه ومعه جماعة من أعوانه ، وطالبه بما صار إليه من الأموال . ولكن العمرى هرب من السجن ، وشيعه يحيى الخولانى بالبيتين الآتيين :

هربَ الخائن ليلا نَجَحَ وأتى أمراً قبيحا فافتَضَحْ
هاربٌ تحمله ناجيـــة يصل الإدلاج عَدواً بالرَّوَحْ

وكأن هذين البيتين أول القصيدة التى تقدمت منها أبيات فى أول الحديث عن القاضى العمرى ، فالقائل واحد ، وكذلك البحر والقافية ، والغرض الذى قيل فيه الشعر

وهذا بدء بلا تمهيد ، تحدث فيه فى الموضوع ، من غير أن يتقدم لذلك بمقدمة من المقدمات التقليدية .

وهرب العمرى من السجن ليلا ، وذهب إلى مدين حيث أمواله ، فأخذها وسار حتى بلغ « فَيْدَ » فلقيه قوم من أسد وطيء فأوقعوا به ، وأخذوا جميع ما معه ، فما تخلص منهم إلا بحشاشة نفسه ، قال يحيى :

إن يكن أفلتَ منا سالماً يوم ولى مسرعا حين هرب
فلقد وافى بفَيْدٍ عصبةً يسعرون الحرب حتى تلتهب

وقال طاهر القيسى لأبى رَحْب[1] ، وهو الذى أشار على البكرى بحبس القاضى العمرى :

(١) الولاة والقضاة ص ١٤٢ .

ولقد كسوت أبا الندى بفعاله ... حَرَبا يلوح قناعُه المتقشِّبُ
وزحمتهُ لما تخمَّط ، زحمةً ... ضاقت عليه بها العراق ويثربُ[١]
ونجا ، لخوفك ، هاربا بخزَايةٍ ... وأخو الخزَاية والشرارة يُغْلَبُ[٢]

وأوفد أبو رحب وهاشم بن حديج ، وفداً من أهل مصر إلى الأمين فأثاروا قضية الحرس ، فكتب الأمين إلى البكرى يأمره بردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم .

القضية عند البكرى :

ودعا البكرى أهل الحرس أن يجيئوا بقضية العُمرى لهم ، فأتوه بها ، وتوهموا أنه يزيدهم شهوداً ، فأخرج البكرى كتاباً من تحت مصلاة نقض به قضية العمرى فقال معلى الطائي[٣] :

يا بنى البظراء موتوا كمدا ... واسخنوا عينا بتخريق السِّجِلّ
لو أراد الله أن يجعلكم ... من بنى العباس طراً لفَعَلْ
لكن الرحمنُ قد صيَّركم ... قبط مصرٍ ، ومن القبط سَفَل

وقيل إن البكرى أثار قضيتهم من جديد . وحضر من أهل مصر عبد الله ابن وهب ، وسعد بن أبى مريم ، وسعيد بن عفير ، وناس كثير من أهل القناعة والعدالة ، فشهدوا عند البكرى أن أهل الحرس من القبط ، وأن العمرى قضى فيهم بجور ، فنقض البكرى قضية العمرى فيهم وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم من القبط .

قال يحيى الخولانى[٤] :

اشكروا الله على إحسانه ... فله الحمد جميعاً والرُّغب[٥]

---

(١) تخمط : تكبر .
(٢) الشرارة : الشر .
(٣) الكندى ص ٤١٤
(٤) الكندى ص ٤١٥
(٥) الرغب : جمع رغبة ، وهى الضراعة .

رجع القبط إلى أصلهم بعد خزى طوّقوهُ وتعبْ
ودنانير رشوْهَا قاضيـاً جائراً قد كان فينا ينتصِب
أخذ الأموال منهم خُدْعَةً وتولى عنهمُ ثم هرب

أبلغ البكرى عنى أنه عادل فى الحكم فرّاج الكُرَبْ
قد أمات الجور فينا والرُّشا وأشاع العدل فينا فَرَتَبْ

إنه قد كان يقضى بالهوى ويبيع الحكم جوراً ويَهَبْ
وإذا يحلو حَساها مُزَّة مثل عين الديك من ماء العنب
فأتت كالشمس إلا أنها كسِيَتْ فى دَنّها لونَ ذهب
ما كفته رَشْوةٌ ظاهرة وقضايا جورُكم[1] فيها عجب
أن أتى أعظم ما يأتى به أحد أن صَيَّر القبطَ عرب

وقال طاهر القيسى لأبى رحب الذى كان زعيما فى الثورة على انتساب أهل الحرس إلى العرب[2] :

ولقد قَمْتَ بنى الخبائث عندما راموا العلا وتَحَوْتَكُوا وتعربوا
فرددتهم قِبطا إلى آبائهم ونسيبِ أصلهم الذى قد غيبوا
وتركتهم مثلا لكل مُلَصَّق نسباً ، إذا التقت المحافل يُضْرَبُ

وتنتهى هذه القضية بعد أن تركت للقاضى العمرى ذكرى فى الشعر العربى لا ترضيه .

وفرض ابن لهيعة فروضاً للمطوعين الذين كانوا يعمرون المواجيز . وصارت سنة

---

(١) لعلها « جوره » .
(٢) الكندى ص ٤١٥ .

بعده ، وسماها الناس فروض لهيعة ، فقال فراس المرادى[١] :

لعمرى لقد سارت فروضُ لِهَيعَةٍ ... إلى بلد قد كاد يهلِكُ صاحبُهْ
إلى بلد تُقْرى به البومُ والصدى ... تعاوِرهُ الرومُ الطغامُ تحارِبهْ
رشيدٌ وإخنا والبرلس كلها ... ودمياط والأشتوم تقوى يغالبه
لهيع ، لقد حزت المكارم والثنا ... ومن عند ربى فضله ومواهبه
فقد عُمِرَت تلك الثغور بسُنَّة ... تُعَدُّ إذا عُدَّت هناك مناقبه

وقدم المطلب الخزاعى فعزل لهيعة عن القضاء فى شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ ثم ولاه ثانية فى المحرم سنة ١٩٩ فاستكتب سعيد بن تليد المصرى[٢] .

وقال أبو شبيب أنيس بن دارم مولى تجيب فى صحابة لهيعة :

قبَّحَ اللهُ زمانا ... رَاسَ فيه ابن تليد
بعد مِقراضٍ وخيط ... وأُبَيْراتِ حديد
وأبو الزِّنباع خنـ ... ـاقُ غراميل العبيد
بعد سيف خشبى ... وسهام من حديد
وأبو الروس المريـ ... ـىُّ ابن دباغ الجلودِ

واللقيط ابن بُكَير ... نطفة القَدْم الطريدِ
وابن سهم حارس الجـ ... ـيزة حلوان البريدِ
عصبة من طينة النيـ ... ـل مَناسِيُّ الجدودِ
لبِسوا بعد التبابيـ ... ـن نفيساتِ البرودِ[٣]

---

(١) ص ٤١٩ والمواخير يقصد بها الثغور .
(٢) ص ٤٢٣ .
(٣) التبابين = السراويل القصيرة جدا ، والبرود = الثياب الموشاة .

لازموا السجد ضُلَّا ... لا من الأمر الرشيدِ
لحوانيتَ بَنَوْها ... بفِنا كل عمودِ
وتسمَّوْا وتكنَّوْا ... بعد جرجه وشَنودِ
والاحوا بجباهٍ ... من نطاح الحُصرِ سُودِ
تحت أميال طوال ... كبراطيل اليهود[1]
نصبوها كالقواعيـ ... ـد على رُوسِ القرودِ
وتراهم للوصايا ... وعدالات الشهودِ
فى مِرَاءٍ وجدَالٍ ... وقيامٍ وقعودِ
وخشوع وابتهال ... وركوعٍ وسجودِ
وعلى القسمة أضْرَى ... من تماسيحِ الصعيدِ
وأشاروا للهدايا ... بأبى عبد الحميدِ

وانظر إلى ما فى هذه القصيدة من قوة فى التصوير والتهكم ، وما كان يراه العرب من فرق بينهم وبين غيرهم ، ورأى هؤلاء فى اللحاق بالعرب لتكون لهم مثل منزلتهم .

وولى قضاء مصر تسعة رجال من حضرموت آخرهم لهيعة ، وكان هناك ولاة آخرون فى الأندلس وفلسطين وبرقة الخ ، فقال الشاعر فى هؤلاء الحضارمة[2] :

ما من بلاد من البلدان نعلمه ... إلا وفيه من الأشياخ والحدَثِ
قضاة عدلٍ لهم فضل ومعرفة ... مبرءون من الآفات والرَّفَثِ

---

(١) الأميال = أنواع من العمائم ، والبراطيل = القلانس ، والمقصود أن أغطية الرأس عالية كبيرة .
(٢) الكندى ٤٢٥ .

وقال آخر :

لقد وَلِيَ القضاء بكل أرض ... من الغُر الحضارمة الكرامِ
رجالٌ ليس مثلهم رجال ... من الصيد الجَحاجِحة الضخام

وقال يزيد بن مِقْسَم الصدفى :

يا حضرموت هنيئاً ما خُصِصْتَ به ... من الحكومة بين العُجْم والعرب
فى الجاهلية والإسلام يعرفه ... أهل الرواية والتفتيش والطلب

وكان بعض القضاة يروى رقيق الشعر ، وكان فيهم شعراء . وهذا قاض منهم واضح الصبابة ، أو جيد التقليد ، وهو هرون بن عبد الله ، الذى ولى القضاء من قبل المأمون سنة ٢١٧ ، وكان من خير القضاة وأحسنهم إشرافا ، وأدقهم مباشرة لما يليه ، ويروى عنه أنه أنشد عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون[1] .

ولما رأيت البينَ منها فجاءة ... وأهونُ للمكروه أن يُتَوَقَّعا
ولم يبق إلا أن تودع ظاعن ... مقيما ، ويَذْرِى عبرةً أنْ يُوَدِّعا
نظرت إليها نظرة فرأيتها ... وقد أبرزت من جانب الخدر إصبعا

وأخبره أن قائلها رجل قرشى . فقال ابن الماجشون أحسن والله . فقال هرون : أنا والله قلتها فى طريق سرتها إليك . قال : قد والله عرفت الضعف فيها حين أنشدتنى !

ويذكرنا هذا بما رواه القاضى الجرجانى[2] من أن إسحاق الموصلى أنشد الأصمعى شعراً نسبه إلى الجاهلية فأبدى إعجابه به ، فقال له الموصلى : إنهما لليلتهما . فقال الأصمعى : لاعجب ؛ والله إن أثر التكلف فيهماظاهر . وذلك تعصب منه للقديم مصدره الهوى لا الذوق ولا العقل .

---

(١) الكندى ص ٤٤٨ .
(٢) الوساطة ص ٢٣ .

الشعر فى خلق القرآن والخلافات المذهبية :

وولى القضاء محمد بن أبى الليث من قبل المعتصم سنة ٢٢٣ . وكان مقيما بها من سنة ٢٠٥ ، وفقيها بمذهب الكوفيين — كان حنفيا — وفى أيام الواثق أمر بامتحان الناس بخلق القرآن ، واشتد فى ذلك ، وأمر أن يكتب على باب المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم ألا يقربوه . وممن امتحن بذلك هرون بن عبد الله .

قال الحسين بن عبد السلام الجمل[1] لمحمد بن أبى الليث : وكأنه يستعرض أعماله أو يسجل حوادثه وأخباره فى ميدان الصراع المذهبى والفقهى ويمدحه بالبشاشة والسماحة ، والعلم النافع . وكان ابن أبى الليث حنفيا متعصبا لمذهبه ، فحبذ الحسين بن عبد السلام عمله فى محاربة مخالفيه ، والتشهير بمن قال بغير رأيه أو مذهبه :

وُلِّيتَ حكم المسلمين فلم تكن ... بَرِمَ اللقاء ولا بِفَظٍّ أزْوَرِ
ولقد بحثت العلم فى طلابه ... وفجرت منه منابعاً لم تُفْجر
فحميت قول أبى حنيفة بالهدى ... ومحمد واليوسفى الأذكر
وفُتَى أبى ليلى وقولَ فريهم ... زفر القياس أخى الحجاج الأنظر

وحطمت قول الشافعى وصحبه ... ومقالةُ ابن عُلَيَّةٍ لم تُصْحَر
ألزقت قولَهم الحصير فلم يجز ... عرضَ الحصير فإن بَدَا لك فاشبر
والمالكية بعد ذكر شائع ... أخملتها فكأنها لم تذكر

---

(١) الكندى من ص ٤٥٢ — ٤٥٦ .

أين ابن هرمز أو ربيعة لا يَرَى ... ماذا تقَوَّل بالمقال الأجْوَر
كسَّرته، فهوى، برأيك كَسْرَةً ... لبثت على قِدَم المدى لم تجبر
أعطتك السنةُ أنتك ضميرَها ... وأتتك السنة بما لم تضمر
فأطفت بالأيلى ينعق صائحاً ... فى كل مجمعِ مشهدٍ أو محضر
ومحمدُ الحكمى أنت أطفته ... وأخاه ينعق بالصياح الأجهر[1]
كل ينادى بالقُرآن وخلقه ... فشهرتهم بمقالة لم تشهر
لم ترض أن نطقت بها أفواههم ... حتى المساجدُ خلقَه لم تُنكِر
لما أريتهم الردى متصوراً ... زعموا بأن الله غيرُ مُصَوِّر

واشتدت المحنة، فهرب بعض الناس، واختفى بعضهم، مثل يوسف بن أبى طيبة، وأحمد بن صالح، ومحمد بن سالم القطان، وأبو يحيى الوقار، وهرب ذو النون بن إبراهيم الإخميمى، ورأى أن يرجع فوقع فى يده؛ قال الجمل:

أحْجَرْتَ يوسفَ فى خزانة بيته ... فطوته عنك وطالما لم يُجْحَر
أخليت من عمرِ الزّناء مُقامَه ... وعمرت منه مداخلا لم تعمر
وكفَرْنك الأرضون حين سألتها ... خبر ابن صالح الخبيث الأكفر
جحدتك أقطار البلاد فما على ... حركاته وسكونه من مظهر
وثوى ابن سالِم خُفْيَةً فى بيته ... ثم امتطى غَلَس الظلام الأستر
فأُتِى به كفُرَيج أو كأبى الندى ... والناس بين مهلل ومكبر

(١) أخرج الأيلى من المسجد وعمامته فى رقبته، ومطر غلام ابن أبى الليث يسوقه، وهو ينادى بخلق القرآن، وفعل مثل ذلك بمحمد بن عبد الله بن الحكم. ولما هم مطر بتناول قلنسوته بادر فأخذها فجعلها فى كمه. الكندى ص ٤٥٢ — ٤٥٣.

وكذاك داود بن حَمَّادٍ اختفى ... بعد الإجابة بالخبيث الأغدر
أسَفِي على شُمْطانِه إذ أفلتت ... من سائق يشتالها أو مُجْرِر
ألاَّ أرى مطرا يطوف بنصفها ... والنصفُ عند محلق ومقصر

وطالب ابن أبى الليث يونس بن عبد الأعلى بأموال كانت عنده ، وقال الجمل يحمد له ذلك ويذكر حرصه على الأموال العامة .

ودعوتَ أصحاب الوصايا بالذى ... قعدوا عليه من التراث الأوْفَر
فأتاك من خشىَ العقابَ بمالهِ ... وطوَى الوصيةَ كل عود مُجسر
فجعلت أطباقَ السجون بيوتهم ... لا يأنسون بمقبل أو مدبر
وثنيت وحدتهم بيونس مؤنسا ... وفتى أبى عون الخئون الأكبر
طرحوا لها الأموال خلف ظهورهم ... ولقوا السجون بعقدة وتبصر
أرضى لهم مَنْكَ السجون وضيقها ... ولجاجَ رأيك فى الألد الأفجر
لم يُشْبِع الثلثان جوعَ بطونهم ... حتى غشُوا ثلث الضعيف الأفقر
فكأننى بك قد حشوتَ ببعضهم ... وعر السجون وكل حبس أقذر

ابن القطاس وابن أبى الليث :

وكان سعيد بن زياد الملقب بابن القطاس ، يتنقص ابن أبى الليث ويتكلم فى المسجد بالطعن فيه ، والدعاء عليه ، فاستدعاه فأنكر ، وأتى إلى ابن أبى الليث رجل فأخبره أن ابن القطاس مملوك لم يجر عليه عتق ، وشهد الشهود بذلك ، وادعى رقبته رجل من الأزد ، يقال له ابن الأبرش ، فحبسه القاضى خمسة أيام ، ثم حكم بشهادة الشهود ، وأمر به فنودى عليه ، فبلغ ديناراً ، فاشتراه محمد بن أبى الليث ثم أعتقه ، فقال الجمل :

وبطشت بالقُطوس بطشةَ قائم بالحق غيرِ مُقصِّر ومبذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رِقّهِ ومنعتـــه يطأُ الحرائر وهو غير مُحرَّر

ابن الليث والعمائم العالية :

وكان زى أهل مصر ؛ وجمال شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم ، لباس[1] القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون فيها . وأشار ابن دارم إلى ذلك فى قوله :

تحت أميـــال طوال كبراطيـــل اليهـود

فأمرهم ابن أبى الليث بتركها ومنعهم لباسها ونهاهم أن يتشبهوا بلباس القاضى وزيه ، فلم ينتهوا ، فجلس ابن أبي الليث فى مجلس حكمه فى المسجد ، واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانس ، فأقبل عبد الغنى ومطر : فضربا رءوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم . ولعب بها الصبيان والرعاع ، وكانوا بعد ذلك لا يدخلون إلى ابن أبى الليث ولا يحضرون مجلسه فى قلنسوة :

وأنشد اسماعيل بن اسحاق بن ابراهيم بن تميم ، من شعر الجمل فى هذا :

وأخفت أيامَ الطوال وأهلَها فرَمَوْا بكل طويلةٍ لم تَقْصُرِ
ما زلت تأخذُهم بطرح طِوَالهم والمشيِ نحوك بالرءوس الحُسَّرِ
حتى تركتهمُ يَرَوْن لباسَها بعد الجمَال خطيئةً لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة يجدونها من أعيُن ومُخَبِّر
فإذا خلا بهم المكان مشوا بها وتأبطوها فى المكان الأعمَر

(١) وهى التى أمر بلبسها يحيى بن داود الخرسى والى مصر سنة ١٦٥ . (الكندى ص ١٢٣) وقد أخذ الفقهاء والأشراف بلبس القلانس الطوال فى الدخول بها على السلطان يوم الاثنين والخميس .

فلئن ذَعرتَ طوالهم فلطالما ذَعرت ، ومَنْ بِرُوَائها لم يُذعر
كانوا إذا دلفوا بهن لِفَضل أمضى عليه من الوشيجِ الأسمر

كم موسر أفقرته ومُفَقَّر أغنيته من بعد جَهْدٍ مُفْقِر
ما إن عليك لقيت منهم واحداً وَافى العجاج مدجَّجا فى مِغْفَر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ولقوا القضاة بمشية وتبختر
مالى أراهم مطرقين كأنما دُمِغتْ رءوسهم بحُمَّى خيبر

وتوقف النيل فاستسقى أهل مصر ، وحضر ابن أبى الليث معهم ، فوثب المصريون ، وأخذوا قلنسوته فلعبوا بها ، بعد ما آذى قلانسهم[1] .

ولما عزل ترك الكثير منهم لبس القلانس وكأنهم قد تعودوا هذا .

وقد تجد فى هذه القصيدة ميلا إلى تكلف الاستعارات ، وضعف التأليف ، واجتلاب الكلمات التى تتم بها القافية ، ولكن طبيعة الموضوع ترغم الشاعر على هذا ، فالتسجيل والسرد من عمل المؤرخ لا الشاعر ، والجمل قد جعل من نفسه مؤرخاً ومحامياً ، ولكنه استطاع أن يجيد فى كثير من الأبيات :

وكان رجل يسمى يحيى بن زكريا ، مولى كندة ، يجلس فى المسجد فيخبر بعزل محمد بن أبى الليث ويشنع عليه فأرسل إليه ابن أبى الليث فلم يكف ، فضربه وحبسه حيناً ، قال الجمل :

كم يعزلونك من يوم ويكذبهم حمل القمطر فما انحاشوا وما وكلوا
سيعلمون من المعزول عندهم أأنتَ أم هم ، إذا فاتتهم الأُكل
هيهاتَ ! منَّتهم الآمال باطلها وأى مستضعف لم يخدع الأملُ
أما قضايا كمُ فيهم مُعَمَّلةٌ ما إن لإرجافهم من فسخها عَمَلُ

(١) الكندى ص ٤٠٦

يا أوجها لهمُ ، ما كان أصفقها ... من أوجه! كيف لا يثنيهم الخجلُ !
قالوا عُزلت ، وما يدرون أنهمُ ... عن الشهادات والزورِ الذى عُزلوا

وترى أن هذا الشعر كله لم يخل من إشارات ودلالات اجتماعية تبين بعض أخلاق الناس أو عاداتهم كقصيدة أنيس بن دارم التى تشير إلى قوة العنصرية فى مصر بين طبقتين من المسلمين ، إحداهما عربية ، والثانية مصرية .

فى قصيدته[1] الدالية ذم لأصحاب القاضى ابن لهيعة من المصريين ، وعلى رأسهم ابن تليد . وفيها أن الأسماء والكنى يجب أن تكون وقفاً على العرب لأنها للرفعة .

ونفهم من شعر يحيى الخولانى أن اللهو كان معروفا ، وكان فى الحاضرة شراب وغناء ، وأن بعض القضاة كان يسمع الغناء ، ويركب إلى الملاهى علناً فى جماعة من أصحابه ، وأن الرشوة كانت شائعة فى أتباع القاضى وكتابه ، وأن العرب أبوا أن يشاركهم مسلمو مصر فى الانتساب لأنهم أقل منهم قدراً .

فلما وصل القبط إلى ذلك سخط العرب وثارت ثائرتهم على القاضى العمرى ، ولم يسكتوا حتى رفض القاضى البكرى ما فعله القاضى العمرى ، وأخرجهم من نسبهم العربى .

وفى قصيدة الحسين بن عبد السلام الجمل[2] ، وأنيس بن دارم دلالة على أن ملابس الرأس كانت عمائم عالية ، ثم حاربها القاضى ابن أبى الليث حتى قضى عليها سنة ٣٢٠ . وفى قصيدة الحسين أيضا صورة عنيفة من الخلافات المذهبية والدينية .

وفى شعر إسحاق بن معاذ أن المفضل بن فضاله كان قاضياً « له شعر طويل مرجل » .

ولو جاءنا كثير من هذا الشعر لكانت دلالته أقوى وفائدة التاريخ منه أعظم .

---

(١) الكندى ص ٤٢٣ .
(٢) الكندى ص ٤٦١ .